القيمُ المتعارفةُ وسياساتُ الدينِ*

عبد الله السالمي ■

بسم الله الرحمٰن الرحيم
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمداً وعلى آله وصحبه أجمعين...

أصحابَ المعالي والسعادة، الإخوة الحاضرون،
ضيوفَنا الكرام،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عندما انطرحت فكرةُ اللقاء معكم بسلطنة عُمانَ وجدْناها فكرةً نيِّرةً تستحقُ المتابعةَ؛ وذلك لعدة أسبابٍ، **أولُها** الاحترامُ الكبيرُ الذي يتمتعُ به مجلسُكم الموقَّرُ على مستوى العالمِ؛ بحيث رأينا أنّ مجلسَكم يشكِّلُ مدخلاً صالحاً لعلاقةٍ متجددةٍ بين العالمِ الأميركي ـ اللاتيني من جهة، والعالمِ العربيِّ ومنطقةِ الخليجِ وعُمانَ من جهةٍ ثانيةٍ. لقد كنا نعلمُ أنه جرى تواصُلٌ عربيٌّ على عدةِ مستوياتٍ بين عالَمَيْنا من خلالِ الجامعةِ

* كلمة الوزير التي ألقاها في مؤتمر الأكاديمية اللاتينية، 23 نوفمبر 2014، مسقط، عُمان.

■ وزير الأوقاف والشؤون الدينية في سلطنة عُمان

العربيةِ، ومن خلالِ مجلسِ التعاونِ الإسلامي. ويأتي هذا اللقاءُ المتخصِّص لاستكشافِ إمكانيات وأبعادٍ أخرى للتواصلِ والفهمِ والتفاهمِ. ونحن ننتظرُ من حضراتِكم بياناتٍ فيمـــا يمكنُ القيامُ به. **والسببُ الثاني:** الدورُ الرائدُ الذي تلعبُهُ سلطنةُ عُمانَ في عهدِ جلالةِ السلطانِ قابوسَ بن سعيدٍ حفظه اللّٰهُ في عوالِمِ اليومِ والغدِ في نشر قيم التواصُلِ والتفاهُمِ والسلامِ في المنطقةِ والعالمِ؛ وهكذا يصبحُ لقاؤُنا فرصةً لنشـــرِ رسالةِ عُمانَ والنهضةِ العُمانيةِ في هذا المجالِ. وســيكونُ لكم لقـــاءٌ وحديثٌ بالطبعِ مـــع وزارةِ الخارجيةِ العُمانيةِ، ورجالاتِ الإدارةِ لتبيانِ أبعادِ الفكرةِ والدورِ في السياسةِ الخارجيةِ والدبلوماسيةِ العُمانيةِ. **والســـببُ الثالثُ:** الأوضاعُ المُقْلقةُ التي تسودُ في منطقتِنا والتي أدَّت إلى أن يصبحَ الإســـلامُ مشكلةً عالميةً. ولذا فقد أردتُ أن أعرِضَ على مســـامِعِكم وجهة نظرنا فيما جرى للإسلامِ وعليه، وما هي إمكانياتُ الفعلِ والتأثيرِ على المُجرياتِ، وما هي التجربةُ أو التجاربُ التي خاضها المسلمون في العقودِ الماضيةِ في مجال سياساتِ الدينِ، وهل يمكنُ القيامُ بعملياتِ الاستشرافِ الضروريةِ فيما يتعلقُ بالمستقبلِ.

I

في عام 1997 دعت لجنةُ حقوقِ الإنسانِ بجنيف ممثلي الدياناتِ الكبرى للتشـــاورِ معهم في الإســـهاماتِ التي يمكنُ لهم تقديمُها فـــي مجالاتِ دعمِ الإعلانِ العالميِ لحقوقِ الإنســـانِ، والعهودِ والمواثيقِ الأُخرى، وكيف يمكنُ كسْبُ ثقةِ المؤمنين وتعاوُنهم في مضمارِ نشرِ المقولاتِ والممارساتِ الكفيلةِ بتبْيئَة حقوقِ الإنسانِ الأساســـيةِ في مجتمعاتِهم وحياتِهم الدينيةِ. وفي حينِ أقبل ممثلو الكنائسِ المسيحيةِ على إيضاحِ الأساليبِ الضروريةِ للقيامِ بهذه المهمةِ الجليلةِ، وبخاصةٍ في المجتمعاتِ المســـيحيةِ خـــارجَ أوروبا وأميركا الشـــماليةِ؛ فإنّ ممثلي الدياناتِ الإســـلاميةِ والبوذيةِ والهندوسيةِ، انصبّت مداخلاتُهُـــم على أمرين: ماذا تســـتطيع نصوصُهم وتقاليدُهـــم الدينيةُ أن تقدّمَهُ لمنظومةِ حقوقِ الإنســـانِ العالميةِ، وما هي مآخذُهُم على المنظومةِ

الحاليةِ من مِثْلِ الاعتراضِ على مسألةِ الحقوقِ الطبيعيةِ لبني البشرِ، ومن مثلِ ازدواجيةِ المعاييرِ في التطبيقِ.

في تلك الفترة ـ أي في النصفِ الثاني من تسعيناتِ القرنِ العشرين (1995 - 2001) ـ كانت قضايا الحوارِ بين المسيحيين والمسلمين على مستوى العالم قد بلغت **مرحلتَها الثالثةَ**. في **المرحلةِ الأولى** دعت الكنائسُ الإنجيليةُ الغربيةُ الكبرى المسلمين في الشرقِ الأوسطِ على وجهِ الخصوصِ، إلى إقامةِ «اتحادِ المؤمنين» في مواجهة الشيوعيةِ. وقد أُقيمت في الخمسينات من القرن الماضي عدةُ مؤتمراتٍ وندواتٍ بلبنانَ ومصرَ والعراقِ والأردنِ لهذا الغرضِ. وبالطبعِ؛ فكما كانت تلك الكنائسُ تتحرك بتوجيهٍ من الإداراتِ السياسيةِ المنخرطةِ في الحربِ الباردةِ (1950 - 1990)؛ فإن الإداراتِ الدينيةَ الإسلاميةَ بالمنطقةِ كانت تتأثر أيضاً بأنظمتِها السياسيةِ؛ كما تتأثرُ أكثرَ بالأجواءِ الشعبيةِ والعامةِ بعد احتلالِ فلسطينَ، وقيامِ دولةِ إسرائيلَ. وفي حينِ كان قرارُ المؤسساتِ الكنسيةِ واحداً وكذلك خطابُها؛ فإنّ الإداراتِ الدينيةِ الإسلاميةِ ما كانت كذلك؛ ليس بسبب الاختلافِ في مواقفِ الأنظمةِ السياسيةِ العربيةِ في الحربِ الباردةِ وحسْب؛ بل ولأنّ المسلمين ليست لديهم إداراتٌ دينيةٌ مركزيةٌ. وهكذا فإنّ معظمَ المؤسساتِ الدينيةِ كان مَوْقِفُها: نعم، ولكن! نعم لاكتشافِكم أننا مؤمنون مثلُكم، لكننا ونحن المؤمنين نختلفُ معكم في أولوياتِ الأخطارِ. فنحن لا نرى الخطرَ علينا آتياً من الاتحادِ السوفياتي أو الفكرِ الشيوعي؛ بل من احتلالِ فلسطين، ودعمِ المعسكرِ الغربي بل والشرقي لهذا الاحتلالِ.

إنَّ الإداراتِ الدينيةَ الإسلاميةَ بالمنطقةِ كانت تتأثر أيضاً بأنظمتِها السياسيةِ؛ كما تتأثرُ أكثرَ بالأجواءِ الشعبيةِ والعامةِ بعد احتلالِ فلسطينَ، وقيامِ دولةِ إسرائيلَ.

وعلى أيِّ حالٍ، ما كان لكلِّ المؤتمراتِ والندواتِ تأثيرٌ من الناحيةِ الدينيةِ، بمعنى أنها لم تقرّبْ بين المسيحيين والمسلمين ـ ولا كانت لها

تأثيراتُها من الناحيةِ السياســيةِ والاســتراتيجيةِ. إذ المعروفُ أنّ الأنظمةَ العربيةَ والإســلاميةَ بالمشرق سَرعانَ ما انقســمت في الحربِ الباردةِ بين المعسكرين: الاتحادِ السوفياتي والولاياتِ المتحدةِ. واتجهت معظمُ الأنظمةِ الناجمةِ عن انقلاباتٍ عسكريةٍ للتحالفِ مع معسكرِ الاتحادِ السوفياتي، دون أن يؤديَ ذلك لنشرِ الشيوعيةِ في العالمِ العربي كما خَشيَتْ الدوائرُ الدينيةُ والاستراتيجيةُ الغربيةُ!

والواقعُ أنّ **المرحلةَ الثانيةَ** من هذا الحوارِ أو محاولةِ إقامةِ علاقاتٍ أكثرَ وُدّاً وتعاوُناً بين المسيحيين والمسلمين، كانت أكثر إيجابيةً وتأثيراً. وقد بدأتها الكنيســةُ الكاثوليكيةُ بعد مؤتمرِ المجمــعِ الڤاتيكانيِ الثاني (1962 - 1965). فقد دعت مقرراتُ المجمعِ إلى علاقاتِ تواصُلٍ وودٍّ وصداقةٍ مع اليهودِ والمســلمين على أســاسِ دعوةِ التوحيدِ والإيمــانِ الإبراهيميةِ. وواضحٌ أنّ في هذه الدعــوةِ تنازُلاً كبيراً للمســلمين، واعتبار دينِهم ديناً إبراهيميّاً مثَل اليهوديةِ التي تَصِلُ نفسَها بإبراهيمَ نَسَباً. والمسيحيةِ التي تصلُ نفسَــها بإبراهيمَ روحيّاً. وإبراهيمُ عليه السلام شخصيةٌ محوريةٌ في القرآن في دعوتِه لوحدانيــةِ اللّهِ، وفي بنائِــهِ للكعبةِ مع ابنهِ إســماعيلَ. والعهدُ القديمُ يذكرُ إسماعيلَ باعتبارهِ ابناً لإبراهيمَ من جاريتهِ هاجرَ؛ لكنه يعطي كلَّ شيءٍ في الدينِ والدنيا لإسحاق بن إبراهيم من سارةَ الحرّةِ والسيدةِ. وخلالَ الجدالِ الذي استمر لأكثرَ من ألفِ عامٍ بين اللاهوتيين المسلمين والمسيحيين، ما كان الاعترافُ بالإســلام باعتباره فرعاً آخرَ أو ثالثاً من فروع الشــجرةِ الإبراهيميةِ ممكناً أو متصوَّراً. ولذلك تلقّى المسلمون هذا الاعترافَ بفرحٍ كبيرٍ. وأقبلوا على حضورِ الندواتِ وورشاتِ العملِ الخاصّةِ بإنفــاذ مقررات مجمع الڤاتيــكان الثاني لجهة الشــراكة في الإيمان بين المســيحيين والمســلمين. ومع أنّ الكاثوليكَ ليســوا كثيرين في المشرقِ العربيِّ، بل الغلبةُ للأرثوذكسِ والأقباطِ؛ فــإنّ الدعوةَ الڤاتيكانيةَ حرّكت اتجاهاتٍ لعلاقاتٍ أكثرَ ودّاً بين المسيحيين والمسلمين في العالمِ العربيِّ

أيضاً. وهي العلاقاتُ التي أساءت إليها الحربُ الأهليةُ اللبنانيةُ (1975 - 1990) التي تركت جراحاً غائرةً.

لقد كان الجانبُ المهمُّ الأولُ في دعوةِ الشراكةِ الإبراهيميةِ إذن، هو تخلّي الڤاتيكانِ عن المواجهةِ التاريخيةِ إلى الحوارِ والشراكةِ. وقد طرح ذلك تحديّاً على المسلمين لجهتين: التأهُلُ للشراكةِ، والإسهامُ الخلّاقُ بمبادراتٍ مماثلةٍ أو تمضي في اتجاهٍ أبعَد له أُفُقٌ مستقبليٌّ، يتخلَّصُ أيضاً من حزازاتِ الماضي. فالدياناتُ الإبراهيميةُ، أو دياناتُ التوحيدِ هي دياناتٌ حصريةٌ، من حيثُ القولُ بوحدانيةِ الحقيقةِ، وليس مع الدياناتِ الأُخرى، الآسيويةِ مَثَلاً، بل وفيما بينها: فاليهوديةُ لا تعترفُ بالمسيحيةِ، وكلتاهما لا تعترفان بالإسلامِ. ويبادلهُما المسلمون تاريخيّاً إنكاراً بإنكارٍ. ولدى المسلمين فُسحةٌ وأُفُقٌ ما جرى استغلالُهُما ولا مُتابعتُهما. فالقرآنُ يتضمنُ مقولةَ أهل الكتابِ من اليهودِ والمسيحيين، وهو يدعوهما إلى شراكةٍ بمقتضى «الكلمةِ السواءِ». لكنّ اللاهوتَ الإسلامي خاضَ طويلاً في شروطِ هذه الشراكةِ التي بدت صعبةً جدّاً وسطَ الإنكاراتِ المتبادَلةِ. وها هم المسيحيون الكاثوليك، يدعون المسلمين لأولِ مرةٍ للشراكةِ من دونِ شروطٍ. وقد استجابت أطرافٌ دينيةٌ وفكريةٌ للدعوةِ الڤاتيكانيةِ، بينما راح آخرون يقرأون من جديدٍ مقتضياتِ الشراكةِ الإبراهيميةِ. وذهب فريقٌ ثالثٌ أكثرُ جرأةً لوضعِ القرآنِ الكريمِ ودعوتِه الحواريةِ في مواجهةِ التقاليدِ اللاهوتيةِ الحافلةِ بالجدالاتِ والنقدِ الجذري للدياناتِ الأُخرى.

اتجهت معظمُ الأنظمةِ الناجمةِ عن انقلاباتٍ عسكريةٍ للتحالفِ مع معسكرِ الاتحادِ السوفياتي، دون أن يؤديَ ذلك لنشرِ الشيوعيةِ في العالمِ العربي كما خَشيَتْ الدوائرُ الدينية والاستراتيجيةُ الغربية!

وما عرقلت هذا التوجهاتُ الجديدةُ الواعدةُ المشكلاتِ الدينيةَ؛ بل عقّدت تلك الجهودَ من الطرفين أمورٌ سياسيةٌ واستراتيجيةٌ. هناك المشكلةُ

الفلسطينيةُ والتي ظلّت تتفاقم بسـببِ الحروبِ وسياساتِ الاستيطانِ، وسطَ تردُّدِ المؤسساتِ الدينيةِ المسيحيةِ في اتخاذِ موقفٍ من إسرائيلَ، باعتبارها دولةَ اليهودِ. وهناك التدخلُ السوفياتي في أفغانستانَ عام 1978 - 1979؛ وبدءُ الحملةِ الأميركيةِ لإسقاطِ المعسكرِ السوفياتي، وانضمام البابا يوحنا بولس الثاني إليها تحت اسم: الإيمان والحرية. ونُلاحظ أنّ دعوة الإيمان والحرية هذه هي التي حملتْها للمسـلمين الكنائس البروتستانتية في الخمسينات من القرنِ الماضي، ورفضها المسـلمون يومَها لأنهم رأَوْا أنّ الشـيوعيةَ ليست تهديداً يسـتدعي الحربَ الدينيةَ! أمّا في الحملةِ على الشيوعيةِ وربْطِ ذلك بغزوِ لبلدٍ إسلامي هو أفغانسـتان؛ فإنّ أطرافاً سياسيةً ودينيةً رأت في ذلك مصلحةً لها؛ وبخاصـةٍ أنّ ذلك يتضمن تحالُفاً مع الولايـاتِ المتحدةِ التي كانت تتجهُ للانتصارِ في الحـربِ الباردةِ. وقد كان ما سُـمّي بـ«الجهادِ» الأفغاني هو برميل البارودِ، الذي ظلّ يتدحرجُ حتى فجّر الدينَ، وأسهم في تخريبِ أجزاء كثيرةٍ من البلدانِ والعُمرانِ في العالمين العربي والإسـلامي بالذاتِ بسببِ هجومِ القاعدةِ على الولاياتِ المتحدةِ عامَ 2001.

لقد بدا لأولِ وهلةٍ في ثمانيناتِ القرنِ الماضي أنّ دياناتٍ ثلاثاً كبرى دخلت في الحربِ الأميركيةِ على العالمِ الشيوعي: البروتستانتيةُ والكاثوليكيةُ والإسـلامُ. بَيْدَ أنّ الانتصارَ في تلك الحربِ صار أميركيّـاً بحتاً وفتح زمناً جديداً للهيمنةِ والعولمـةِ. وترك الانقفالُ الاسـتراتيجي المتجددُ تأثيراتِهِ الكبرى على الدياناتِ الثلاثِ: في البروتستانتيةِ تقدمت الإنجيلياتُ الجديدةُ على الكنائـسِ الكبرى، وأظهر البابا يوحنا بولس الثاني خشـيَتَهُ وانصرف لمكافحةِ سياساتِ العولمةِ المتجددةِ. أما الإسلامُ ـ وكما سبق القولُ ـ فقد انفجر بأيدي السلطاتِ والمجتمعاتِ والمؤسساتِ الدينيةِ وبخاصةٍ بعد حربِ الخليجِ الثانية عندما احتلّ العراقُ الكويتَ، وأقامت الولاياتُ المتحدةُ تحالفاً دُوَليّاً عريضاً لضربِ السـلطةِ العراقيـةِ الغازيةِ؛ وهو الأمـرُ الذي كررتْهُ الولايـاتُ المتحـدةُ مـع حليفاتها الأقـربِ فـي العالـمِ 2001 - 2002 في أفغانستان، وفي عامِ 2003 بالعراقِ.

وفي ظروفِ تسعيناتِ القرن الماضي العاصفةِ، ووسطِ نفورٍ من العالمِ من الأُصولياتِ الصاعدةِ في قلبِ الإسلامِ، طرح المفكرُ الكاثوليكي المتحررُ هانز كينغ H. Küng مشروعَهُ للأخلاقِ العالميةِ. قال هانز كينغ في مؤتمر شيكاغو للأديان عام 1991: إنه لا يمكنُ تحقيقُ السلامِ في العالمِ إلّا بالسلامِ بين الأديانِ. ولا سلامَ بين الأديانِ إلّا بالتلاقي في المنظوماتِ الأخلاقيةِ الكبرى التي تتضمنُها. وقد عَدَّ كينغ مشروعَه هذا استمراراً متطوراً للمشروعِ الڤاتيكاني. لكنه يتميزُ عنه بالفعلِ بانطلاقهِ من اعتبارِ الأديانِ كلِّها، وليس الديانات الإبراهيمية فقط. وفي حين رحّب بالمشروع أتباع الدياناتِ الآسيويةِ؛ فإنّ الإنجيليين الجددَ والكاثوليكَ المحافظين ما وجدوا فيه ما يمكن أن يتحمسوا له. أمّا في عالم الإسلام فقد اختلفت الآراءُ بشأنِهِ وفائدتِهِ. إذ إنّ الأصوليات الجديدةَ اعتبرتْهُ محاولةً لإلغاءِ الإسلامِ بإلغاءِ أيِّ خصوصيةٍ له. في حين رأت مؤسَّساتٌ دينيةٌ إسلاميةٌ أنّ الانفتاح على الإبراهيميةِ المستجدةِ ما جلب الكثيرَ للمسلمين؛ فكيف بهذا التوسُّع الذي يحتاج لتفكيرٍ كثيرٍ!

قال هانز كينغ في مؤتمر شيكاغو للأديان عام 1991: إنه لا يمكنُ تحقيقُ السلامِ في العالمِ إلّا بالسلامِ بين الأديانِ. ولا سلامَ بين الأديانِ إلّا بالتلاقي في المنظوماتِ الأخلاقيةِ الكبرى التي تتضمنُها.

أمّا نحن في عُمانَ؛ فقد رأينا في هذه المبادرةِ مرحلةً ثالثةً واعدةً، وفيها ما يمكنُ الإفادةُ منه، والتشجيعُ عليه. فالمسلمون لا يملكون ذاكرةً نزاعيةً قويةً مع الدياناتِ الآسيويةِ. وتوسيعُ الأُفُقِ هذا يفتحُ المجالَ لمواجهةِ الأُصولياتِ الصاعدةِ بداخلِ الإسلامِ.إذ إنّ تلك الأصولياتِ تُحيلُ الدينَ إلى شعائرياتٍ، وتتنكرُ لقيمِ الدينِ وأخلاقهِ. والأسوأُ في هذه النزعات التنكُّرُ لكلِّ المشتركاتِ مع الدياناتِ الأُخرى ومع العالمِ. وانطلاقاً من هذا التقديرِ للموقفِ، دعوْنا البروفسورَ كينغ مراراً للمحاضرةِ بعُمانَ، كما اهتممنا بدعوةِ أهلِ الأُطروحةِ الإبراهيميةِ، ومئاتِ المثقفين والمهتمين بفلسفةِ الدينِ، وسياساتِ الدينِ، والمتخصصين بالإسلامِ، عبرَ العِقْدَيْن الماضِيَيْنِ. وفي

الوقتِ نفسِــه ذهبْــتُ للمحاضرةِ والنقــاشِ فــي المنتدياتِ والمناســباتِ الكاثوليكيةِ والإنجيليةِ والجامعاتِ في أوروبــا والولاياتِ المتحدةِ. وقد كان الموضوعُ الرئيسُ في كلِّ هذه النشاطاتِ تقديمَ وجهةِ نظرٍ عن التشددِ الذي نشهدُهُ في دينِنا ونعرفُ خطرَهُ، وتأثيراتِ السياسات والاستراتيجياتِ الدوليةِ والإقليميةِ فيه وعليه، وكيف يمكن الخروجُ إلى توجُّهاتٍ أُخرى داخلَ الإسلامِ، وبين المسلمين والدياناتِ الأُخرى. وقد لعبتْ في برنامِجنا للانفتاحِ وصنعِ الشــراكاتِ مجلةُ التســامحِ/التفاهمِ التي تُصْدِرُها وزارةُ الأوقافِ بالعربيةِ والإنجليزيةِ دوراً رئيســاً بأربعةِ معانٍ أو اتجاهاتٍ: **أولُها:** القراءةُ الجديدةُ للقيمِ القرآنيةِ في المســاواةِ والرحمــةِ والعدلِ والتعــارُفِ والخيرِ العام، والدراسةُ المقارنةُ لبحوثِ الدينِ ودراساتِه في العالمِ المُعاصرِ، والتجربةُ الإسلاميةُ القديمةُ والمعاصرةُ للعلاقاتِ بداخلِ الإسلامِ بين الفئاتِ المتنوعةِ، ومن جهةٍ أُخرى المتغيــراتُ الكبرى التي أثرت في الديــنِ نتيجةَ الحداثةِ ونتيجةَ السياســاتِ الدوليةِ. والاتجاهُ أو **الاهتمامُ الرابعُ:** الأُصولياتُ وكيف يمكــنُ الخروجُ منها. وقد كَتَــبَ لجمهورِنا في التفاهمِ عشــراتُ المفكّرين الغربيين، سواءٌ في فلســفةِ الدينِ أو في سياساتِ الدينِ. نعم، لقد اعتبرنا عملَنا فــي المؤتمراتِ التي ندعــو أو نُدعى إليها، وفــي المحاضراتِ التي نقترحُها على مَنْ ندعوهم، وفي الندوة الفقهية السنوية وفي مجلة التسامحِ/التفاهــمِ، جُهْداً نهضويّــاً وتنويريّاً يرمــي لتغييرِ رؤيةِ العالــمِ في مجالِنا الحضاريِ، وزيادةِ المشتركاتِ مع الدياناتِ والعوالمِ الأُخرى.

II

أيها السادةُ ـ حضورَنا الكرامَ:

يدخلُ دينُنا، وتدخُلُ مجتمعاتُنا في السنواتِ القليلةِ الماضيةِ والحاضرةِ في خِضَمِّ ما أعتبرُهُ **المرحلةَ الرابعةَ** من مراحلِ تطوراتِ العلائقِ مع الأديانِ والثقافاتِ ومع العالمِ. ولا بُــدَّ من وقْفةِ مراجعةٍ وتقديرِ موقفٍ للجهد الذي بذلْناه طوالَ العقدين الماضيين. ولا بُدَّ من ذكْرِ ذلك هنا للإنصافِ ولتقديرِ

النتائجِ. فنحنُ في وزارةِ الأَوقافِ والشؤونِ الدينيةِ بسلطنةِ عُمانَ، عندما كنا وما نزالُ نقومُ بهذه المساعي الواعيةِ، ما كنا نعملُ أو ننطلقُ من فراغٍ. فالتجربةُ العُمانيةُ تجربةٌ تعدديةٌ من النواحي الدينيةِ والإثنيةِ. وقد أضافت إليها النهضةُ في عهدِ جلالةِ السلطانِ أبعاداً جديدةً وواعدةً. وبالطبع فإنّ تجربتَكم أو تجاربَكم في أميركا اللاتينيةِ مختلفةٌ؛ وبخاصةٍ ما تعلّق منها بمواقعِ الدين في المجتمعاتِ، وبعلائقِ الدينِ بالدولةِ والنظامِ السياسيِ. وقد قدّمْتُ بهاتين الملحوظتين، لأَصِلَ إلى التقديرِ الأَوَّلي لنتائجِ الجهدِ المبذولِ. تعلمون الآن أنّ مجتمعاتِنا ودولَنا العربيةَ شهدت هَزَّتين جديدتين: هزّةَ حركاتِ التغييرِ، وَهزّةَ ظهورِ ما صار يُعرفُ بالإسلامِ السياسي، والآخرِ الجهادي. وبالنظرِ للتجربةِ العُمانيةِ في التعدديةِ والعيشِ المشتركِ والنهوضِ التنموي؛ فقد استطاعت السلطنةُ تجاوُزَ الحركتين أو الهزتين اللتين أشعلتا عدةَ دولٍ في الجوارِ. ورغم غموض **المرحلة الرابعة** هذه بحيث لا يمكن التوقع أو الاستشراف بشيءٍ من اليقين؛ فإنّ النموذجَ العُماني لسياساتِ الدينِ والدولةِ، وَعَدَ وما يزالُ يَعِدُ بإمكانياتٍ عاليةٍ للاستقرارِ والنجاحِ بإذنِ اللّهِ.

لقد واجهْنا بالفعلِ في عملنا الإصلاحي والتنويري صعوباتٍ بسببِ استعلاءِ الخصوصياتِ باسمِ الدينِ في مجتمعاتِنا العربيةِ. والإسلامُ السياسي والآخرُ الجهادي تعبيراتٌ بارزةٌ عن قوةِ تلك الخصوصياتِ في التفكيرِ والتصرفِ.

لكنْ، لأنني تحدثتُ في هذه الكلمةِ عن عملِنا في مجالِ سياساتِ الدينِ؛ فسأعودُ كما وعدتُكم إلى هذه المسألةِ بالذاتِ. لقد واجهْنا بالفعلِ في عملنا الإصلاحي والتنويري صعوباتٍ بسببِ استعلاءِ الخصوصياتِ باسمِ الدينِ في مجتمعاتِنا العربيةِ. والإسلامُ السياسي والآخرُ الجهادي فيه تعبيراتٌ بارزةٌ عن قوةِ تلك الخصوصياتِ في التفكيرِ والتصرفِ. ونعرفُ جميعاً أنّ لهذا التشدُّد أسبابَهُ التي تعود في قسمٍ منها إلى سياساتِ الدينِ في البلادِ العربيةِ، كما تعودُ أسبابٌ أُخرى إلى العلاقاتِ الإقليميةِ والسياساتِ الدوليةِ. وقد ذكرْتُ مِنْ قبلُ الحربَ بل الحروبَ في أفغانستان، والتي أنتجتْها

السياساتُ الدوليةُ، وأسهمت إلى حدٍ كبيرٍ في الظواهر العنيفةِ التي ما تزالُ منطقتُنا مهدَّدةً بوقائِعها وتفجُّراتِها. شعوبُنا شعوبٌ متديّنةٌ. والإسلامُ موجودٌ في المنطقةِ والعالمِ منذُ ألفٍ وأربعمائةِ عامٍ ونيِّف. وقد انتهت مراسمُ الحجِّ قبل شـــهرٍ ونيِّـــف، وكان عددُ الحُجّاجِ مـــن أصقاعِ الأرضِ أكثـــرَ من ثلاثة ملايين. وما كُنا نشـــهدُ تفجراتٍ دينيةً بهذا الحجم إلّا في ظروفِ الغزواتِ الكبرى من الخارجِ مثـــلَ الحروبِ الصليبيةِ والمغوليةِ، وحروبِ الاســـتعمارِ الحديثِ. فالعِلّةُ فيما نقدِّر ليســـت في أُصولِ الدينِ أو طبيعتِهِ. ومع ذلك، وكما سبق القولُ؛ فإنّ «سياســـاتِ الدينِ» داخَلَها خَلَلٌ كبيرٌ في عقودِ القرنِ العشـــرينِ، وليس من الخـــارجِ فقط؛ بل ومـــن الداخلِ أيضـــاً. وإذا كانت الماركسياتُ المختلفةُ، والرأســـمالياتُ المختلفةُ؛ قد أحدثت عندكم وخلالَ القرنِ العشـــرين، هذا المَوَران الهائل، فكيف إذا جـــرى التلاعُبُ عمداً في مجالِ سياساتِ الدينِ؛ بالداخلِ أو من الخارجِ؟!

ولنَعُدْ إلى عملِنا في مجالِ قيمِ الدينِ وسياساتِ الدينِ. لقد ذكرْتُ لكم استجاباتِنا الخلّاقةَ لدعواتِ الانفتاحِ والشراكةِ والقيمِ المشتركةِ. وقلت: إننا واجهْنا فـــي عملِنا هذا للانفتـــاحِ والتنويرِ صعوبـــاتٍ من دواخلِنـــا العربيةِ والإسلاميةِ جَرّاءَ التشدُّدِ المستجدِّ ذي الأسبابِ المختلفةِ. لكننا والحقُّ يقالُ واجهْنـــا صعوباتٍ كبرى أيضاً من جانب شـــركائِنا في الديانـــاتِ والثقافاتِ الأُخرى. فالعربيُّ والمسلمُ ـ مثلَ سائرِ البشـــرِ ـ توّاقٌ للاعترافِ بإنسانيتِهِ ودينِهِ وقوميتِهِ وتجربتِهِ الخاصّةِ فـــي كلِّ ذلك. وقد عانيتُم أنتم في أميركا اللاتينية كما عانينا وأكثرَ نتيجةَ التنكُّرِ لشـــخصيتِكم الإنسانيةِ والوطنيةِ. لقد دخلْنا بقوةٍ في الدعوةِ الإبراهيميةِ، والاعترافِ المتبادَلِ، المترتّبِ عليها. ودخلْنا في دعوةِ المشتركاتِ الأخلاقيةِ العالميةِ. ودخلْنا قبل هذه وتلك دولاً ومجتمعاتٍ في ميثاقِ الأُممِ المتحدةِ، وفي الإعلانِ العالمي لحقوقِ الإنسانِ. لكننا شـــهدْنا في العقـــودِ الثلاثةِ الماضيـــةِ، ترددا كبيراً فـــي مجالِ هذه المشـــتركاتِ بالذاتِ من الفُرقاءِ الدينيين والثقافييـــن الذين أقبلْنا عليهم وأقبلوا فـــي الظاهرِ علينـــا. فبعـــدَ اســـتراتيجياتِ نهايةِ التاريـــخِ، وصدامِ

الحضاراتِ، قال لنا أصدقاءُ أعزّاء: إنّ مفاهيمَ مثلَ العدلِ والسلامِ والتسامُحِ والاعترافِ، ليست قيماً مشتركةً لأنها تعني لديهم غيرَ ما تعني لدينا. وقال بعضُهم: إنّ ذلك يعودُ لاختلافِ طبائعِ الدينِ، أو لاختلافِ مسائلِ الاجتماعِ الإنساني وتنظيماتِهِ؛ وهكذا فأصلُ مشكلاتِنا معهم دينيٌّ وثقافيٌّ، ونحن العربَ والمسلمين نشكّل استثناءً لهذه الجهةِ عن قيمِ العالمِ المعاصرِ! وقلنا لهم: إنّ هذا التردّدَ أو الإنكارَ لا مسوِّغَ له من جهةِ الدينِ. فالقرآنُ الكريمُ يقولُ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]. ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ...﴾ [الحجرات: 13]. فنحن وإياكم نملكُ المفاهيمَ ذاتَها باعتبارنا بشراً وباعتبارنا مسلمين مستعدين ومؤهَّلين للاعترافِ المتبادَلِ. ومع ذلك؛ تعالَوْا لنعملْ معاً فيما تعارفْنا عليه أو فيما صار معروفاً بالفطرةِ وبالتجاربِ. يتكرر عندنا في القرآنِ مئاتُ المراتِ مفردان أو مصطلحان هما «المعروفُ»، أي ما جرى التعارُفُ على خيريتِه، «والمنكَر» وهو ما جرى التعارُفُ بين البشرِ على اجتنابِه أو مكافحتِه. تعالَوْا إلى ثلاثيةِ: العقلِ والعدلِ والأخلاقِ. فالإنسانُ كائنٌ عاقلٌ، وكائنٌ أخلاقي، والعقلُ والأخلاقُ يفترضانِ الإنصافَ والانتصافَ!

إنَّ الذي أراه أنّ أفكارَ وسياساتِ التسامُحِ والتفاهُمِ والاعترافِ ما فشلت، كما أنه لا يمكنُ التراجُع عنها لا من جانبِنا ولا من جانبِ الآخرين. فنحنُ جزءٌ من هذا العالَمِ، ولا نُريدُ أن نُخيفَهُ ولا أن نخافَ منه.

III

هل يعني صعودُ الأُصولياتِ، وتشكُّكُ الكثيرين في المشتركاتِ القيميةِ والأخلاقيةِ، أنّ سياساتِ الانفتاحِ والتعارُفِ ومبادراتِ الشراكةِ، كانت فاشلةً أو غيرَ مجديةً؟

إنّ الذي أراه أنّ أفكارَ وسياساتِ التسامُحِ والتفاهُمِ والاعترافِ ما فشلت، كما أنه لا يمكنُ التراجُع عنها لا من جانبِنا ولا من جانبِ الآخرين. فنحنُ جزءٌ من هذا العالَمِ. ولا نُريدُ أن نُخيفَهُ ولا أن نخافَ منه. وإنما نريدُ

المشاركة فيه بفعالية. وقد عملنا نحن العُمانيين على مدى قرونٍ وقرونٍ مع الشعوبِ الأُخرى في المحيطِ الهنديِ وبحرِ الصينِ، وأنشأنا مع تلك الشعوبِ ثقافاتٍ وحضاراتٍ ودولاً. وقد عانينا من الاستعمارِ كما عانت الشعوبُ والأُممُ الأُخرى على شواطئِ المحيطِ وفي أعماقهِ. فحيواتُ الأُمَمِ لا تُقاسُ بالأعوامِ ولا حتّى بالقرونِ. وكما كانت التجربةُ العُمانيةُ ناجحةً بكلّ المقاييسِ؛ فإنّ التجربةَ العربيةَ والإسلاميةَ التي نجحت في موازينِ التاريخِ، ستكون ناجحةً في موازينِ المستقبلِ. يلزمُنا عملٌ كثيرٌ في مجالِ السياساتِ العامةِ وعملٌ كبيرٌ وكثيرٌ في مجالِ سياساتِ الدينِ. وعندنا تجربةٌ تاريخيةٌ طويلةٌ في الانسجامِ بين الدينِ والدولةِ. فنحن مختلفون من هذه الناحيةِ عن التجربةِ الأوروبيةِ. لكنْ في حينِ أدّى الفصلُ بين الدينِ والدولةِ في الغربِ في القرونِ الثلاثةِ الماضيةِ، إلى نجاحِ الطرفين أو القطبين بعدَ طولِ نزاعٍ؛ فإنّ العقودَ الستةَ الأخيرةَ على وجهِ الخصوصِ في مجالِنا الديني والسياسي، شهدت صراعاً بين القطبين للأسبابِ التي ذكرْتُها وبينها الداخلي والخارجي. فيكونُ علينا الإفادةُ من تجارِبنا وتجاربِ الأُمَمِ والدياناتِ الأُخرى لإعادةِ الانسجامِ أو الاتّساقِ بين القطبين. إنّ واجبَنا اليومَ قبلَ الغدِ العملُ في مجالِ الإصلاحِ الديني، ويتضمنُ ذلك التصديَ لعملياتِ تحويلِ المفاهيمِ التي قامت بها الحزبياتُ الدينيةُ على مدى العقودِ الستةِ أو السبعةِ الماضيةِ. وقد شكوتم أنتم في أميركا اللاتينيةِ من قوةِ المؤسسةِ الدينيةِ الكاثوليكيةِ، وتشْكون من هياجِ واجتياحاتِ الإنجيلياتِ الجديدةِ. ونحن نشكو من ضعفِ المؤسساتِ الدينيةِ التي كان ضعفُها بين أسبابِ صعودِ الأُصولياتِ. فبسببِ هذا الضعف ادعت العصبياتُ الحزبيةُ الدينيةُ لنفسها حقَّ القيامِ بوظائفِ المؤسسةِ الدينيةِ، وواجبَ الاستيلاءِ باسمِ الدينِ على إدارةِ الشأنِ العام. وقد قرأتُ في كتابِ سكوت هيبارد Heppard عن سياساتِ الدينِ الصادرِ عامَ 2007 أنّ بعضَ الأنظمةِ السياسيةِ الديمقراطيةِ استخدمت الدينَ للحصولِ على شعبيةٍ بين المتدينين مثلما حصل في الولاياتِ المتحدةِ والهندِ؛ فأدّى ذلك إلى صعودِ الأُصولياتِ. ولذا فالذي أراهُ أنّ المؤسساتِ الدينيةَ القويةَ

المنضبطةَ في نطاقِ وظائِفها ومهامِّها المتعارَفِ عليها، تستطيعُ أن تتصدَّى للأُصولياتِ، كما تستطيعُ الحيلولةَ دونَ استخدامِ الدينِ من أجلِ إثارةِ النعراتِ والحساسياتِ تطلباً للشعبيةِ السريعةِ. وهكذا فإنّ الإصلاحَ الديني ـ مثلَ الإصلاحِ السياسي ـ عمليةٌ معقَّدةٌ وتتطلبُ عَقْداً اجتماعيّاً يتعدَّلُ بحسبِ الظروف، وتشاركُ فيه وفي تعديلاتهِ «الدولةُ العميقةُ» كما يقالُ، وهو الأمر الذي عرفتْهُ عدةُ دولٍ بالمشرقِ.

أيها السادةُ:

عملنا نحن العُمانيين على مدى قرونٍ وقرونٍ مع الشعوبِ الأخرى في المحيطِ الهنديِ وبحرِ الصينِ، وأنشأنا مع تلك الشعوبِ ثقافاتٍ وحضاراتٍ ودولاً.

أنتم ضيوفٌ كرامٌ، ذوو خبرةٍ وتجربةٍ. وقد أتيتم إلينا في ظروفٍ استثنائيةٍ تمر بها منطقتُنا العربيةُ. ولو أنني انصرفْتُ للكلامِ العامِّ، لظننتم أنني أُريدُ أن أُخْفيَ عنكم شيئاً خوفَ الإحراجِ أو الانكماشِ. ولذلك تعمدْتُ أن أعرضَ عليكم طرفاً من «سياساتِ الدينِ» بعُمانَ وعندَ العربِ، إسهاماً في الفهمِ والإفهامِ ـ ولبناءِ علاقاتٍ فيما بيننا قائمةٍ على المصارحةِ والثقةِ والمودّةِ. والذي أراه أنّ المنطقةَ العربيةَ عندها مشاكلُ كثيرةٌ، ومن ضمنِها المشكلةُ الدينيةُ. لكننا بالعملِ المستنيرِ والمسؤولِ نستطيعُ ويجب أن نحوِّلَ المشكلاتِ إلى فُرصٍ. وتعلمون أنه ليس أمراً إنشائيّاً أو خطابيّاً القولُ إنّ عالمَ اليومِ حافلٌ بالمخاطرِ والفُرَصِ. وهذا الأمرُ ينطبقُ علينا نحن العربَ على وجه الخصوصِ. فنحنُ نملك تجربةً تاريخيةً عريقةً. ونملك موقعاً استراتيجيّاً بينَ قاراتٍ ثلاثٍ. وفي أرضِنا بمقاييسِ اليومِ ثرواتٌ معتَبرةٌ. وقد ناضل آباؤُنا للتخلصِ من الاستعمارِ والهيمنةِ مثلما ناضلت شعوبُ آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينيةِ. وما كانت لدينا مشكلاتٌ كبرى مع دولِ الجوارِ أو دُوَل المحيطِ. بَيْدَ أننا عانينا ونعاني مثلَكم في عملياتِ بناءِ الدولةِ والتنميةِ. وفي حين زال الاستعمارُ من سائرِ أنحاءِ العالمِ، ما يزال على أرضِنا احتلالٌ. ولدينا كما

سبق القولُ، هذا التحدي، في إعادة السكينة والثقةِ إلى الثائرين من الشبانِ المتشددين دينيّاً الذين يهددون استقرارَنا ويخيفون العالمَ.

نحن مســرورون اليوم باللقاءِ معكــم، وقد عرفتم العــربَ في الأزمنةِ الحديثةِ مهاجرين وطالبي عملٍ وعاملين في الشأنين العامِّ والخاصِّ. ونحن نتواصل اليومَ من أجلِ التعاونِ والشــراكةِ في نطاقِ وسياقِ ما تعارَف عليه العالمُ من قيمٍ للعدلِ والسلامِ والحريةِ والصداقةِ.

أشكرُكم على الصبرِ وحُسْنِ الاستماعِ. وأُريدُ أن أختمَ بآياتٍ من القرآنِ الكريمِ تشــرحُ النهجَ القرآني في إقامةِ العلاقاتِ الوثيقةِ بين بني البشرِ: ﴿... وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصّلت: 33 - 35].

صدق الله العظيم.